﴿ شوقي والنزعة العربية ﴾

« خطاب الامير مصطفى الشهابي »

—((●))—

كنا في أواخر أيام السلطان عبد الحميد عصبة تلامذة في فروق نتداعى خلسة ويعقد بعضنا على بعض وعوداً للاجتماع في غسق الليل نتدارس الأدب العربي والتركي والفرنسي ونقرأ من الصحف المصرية ماحرم السلطان علينا مطالعته . وكنا جميعاً دعاة للعربية وسعاة لاستقلال الشرق العربي وقد هلك معظمنا في هذه الغاية فيما بعد وراحوا شهداء حرية بلادهم . ففي تلك الايام السود الحوالك وفي حذر المجرم الخائف المتلمس كان يهمس احدنا في أذن أخيه قائلا : أترى يتاح للامة العربية شاعر قومي يوقظ منها النيام المسبتين والكسالى الخادرين ، شاعر اذا تغنى فبالنيل وبردى والفرات ودجلة ، واذا حن فالى مهد عيسى واحمد والى فراديس القاهرة وجناتها الغناء والى الربوة والغوطتين والى لبنان وبلاد الرافدين ، واذا استعز على الناس واستكبر فبالملوك الحلاحل من بني غسان وبالغر الميامين من عبد شمس وبالخلائف الصيد من بني هاشم وبالأبطال الاشاوس من بني حمدان وبني ايوب وبني الاحمر وبني مرين وبني فاطمة الزهراء وكل قرين لهم عربي او مستعرب ممن طواهم الدهر في طياته لكنه عجز عن طمس أعمالهم الخالدة وأمجادهم التالدة .

وكانت تأتينا من مصر فيما يأتي قصائد شوقي وفرائده فكنا نقرأها بل نستظهرها معجبين بجمال حوكها ومتانة لغتها ودقة التصوير والتحليل فيها . لكنها ما كانت لتشفي منا غليلاً ولا لتطفئ في نفوسنا نيران الشباب المتأججة . بل كنا نردد الأستفكار قائلين مالشوقي ورياض البوسفور يمدحها في قصيدته « البوسفور كأنك تراه » وماذا يعنيه من جسر غلطة ومن نهو كوك صو ومن كلاب الاستانة وحدائقها وقصورها ونحن قد تشبعنا بوصفها حتى التخمة في شعر ادباء الترك ونثرهم امثال توفيق فكرت وخالد ضيا وعبد الحق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حامد وجناب شهاب الدين ومن على غرارهم من الفحول الذين ذاع صيتهم واستفاضت شهرتهم لدى الشعب التركي ·

ثم أخذنا نقرأ اماديحه في السلطان عبد الحميد وثناءه على العثمانيين وبسالتهم فكنا نتهامس بانه مسلم لاح له ان يطري خلافة فروق القائمة لكنه سها عن باله اننا في عصر النور والقومية بل محب للترك له الحق كل الحق بان يشيد برجالهم وبلادهم لكننا نراه يثني عليهم بلسان عربي لا يفهمه المخاطبون ولا يريدون ان يفهموه ·

وكنا والله يعلم نأسف لتلك الجهود الضائعة يبذلها شاعر عربي فحل ما انجبت الكنانة مثله منذ قرون ويوجهها الى قوم لا يكترثون لها لانهم لا يفهمونها · اما شباب العرب الذين يدركون تلك الروائع فلقد كانوا عنها في شغل شاغل · وكيف تشجيهم هذه الاناشيد وهي ما صيغت لهم ولا لبلادهم ولا لقومهم ·

وكنا في اسمارنا نقول أترى لو كان فكتور هوغو كتب بلغة غير لغة الفرنسيس قصائده الحماسية الهائلة التي دونها في كتاب «المشاهدات» أفكان يكون لها تأثير يذكر في ابناء جلدته · ولو ظل شوقي يحمس ضباط الترك وشبابهم عشرات السنين بقصائد عربية حماسية تحاكي فرائد المتنبي أفيمكن ان يكون لجهده المضني تأثير كبير يذكر في اناس يجهلون لسانه ولكم لعنا الأقدار التي جعلت مثل هذا الأديب العربي الكبير يكد لغير قضيتنا ويشيد بغير بلادنا ·

ثم دار دولاب الدهر فثارت الحرب الكبرى فطحنتنا فيمن طحنته واهلكت عدداً من رفاقنا لكنها ما انقشعت غمائمها السود حتى فصلت البلاد العربية عن البلاد التركية وحتى طلع علينا شوقي بسينيته المشهورة في الاندلس · وما ان قرأنا فيها قوله :

وعظ البحتري ايوان كسرى وشفتني القصور من عبد شمس

وقوله :

وعلى الجمعة الجلالة والنـا صر نور الخميس تحت الدرفس

ثم قوله :

صنعة الداخل المبارك في الغر ب وآل له ميامين شمس

قلت ما ان قرأنا له هذه الابيات واشباهها حتى هللنا وكبرنا وقلنا الآن بدأ امير

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشعراء يكون شاعر النزعة العربية الكبرى . وقلنا لعل انفصال بلادنا عن بلاد الترك هو ما ولد فيه هذه النزعة أو هو ما حدا به الى اذاعة ما استسر منها في قرارة نفسه ، دون محاذرة دولة الخلافة او مغاضبة ضميره في حبه الخالص للترك ودفاعه المجيد عن الدولة العثمانية .

ثم اختلفنا اليه في لبنان منذ سبع سنين وانافي ذات يوم لنسرح الطرف في آكام الجبل وحزاجه الملتفة ونتنادر ونرسلها افكوهة تتلوها املوحة واذا باحدرفاقنا يبتدره قائلاً ياابا علي ياامير الشعراء انت شاعر مصر الاكبر وشاعر الاسلام وشاعر الملوك من آل محمد علي وشاعر الخلفاء العثمانيين والترك الكماليين وانت الفياض الذي جمع بين وصف الدنيا باجمل مافيها ووصف الآخرة باروع ماهو في الدين من ايمان وتقوى ، هلا اضفت الى كل هذه النواحي التي سالت فيها مراهف اقلامك ومقاطرها ناحية هي لدينا بكل تلك ؟ فقال رحمه الله وقد تجهم لنا وانتصب على كرسيه اي ناحية هذه ؟ وكأنه يستغرب ان يكون ثمة نواح لم تتناولها عبقريته ولم يبذ الناس فيها ببيانه فقلت هي التي ذر قرن شمسها ولاح نور هلالها في اندلسيتك السينية . هي وصف روائع الطبيعة في بلادالشرق العربي كافة هي تذكيرنا بالشموس السواطع من أجدادنا هي حثنا على عظيم الأعمال وجليل الشؤون حتى نصبح احراراً في بلادنا . والخلاصة هي ان لاتقصر نفسك في فرائدك على مصر اوعلى من لا يفهمونك من الترك بل تطمح بها الى البلاد العربية اللسان كلها فتكون شاعر العرب الاكبر وشاعر المنازع العربية الشامية ، ونحن بعد هذا موقنون بان شباب العرب في الشرق والغرب سينكبون على قصائدك يستظهرونها ويروونها في كل مكان ويمزجونها بدمهم حتى انه لوامكن انتقال العلوم والآداب بالوراثة لولد اطفالنا وهم حفاظ لاشعارك مذابيع لاخبارها . ثم اضفت قائلاً نحن ماتقاعس شعراؤنا عن القيام بواجبهم نحو مصر وهاك مطران والرافعي وغيرهما دليل ساطع على ذلك كما ان النزعة العربية ماعدمت شعراءها كالزركلي وجبري ومردم والخطيب في الشام والرصافي والزهاوي والشبيبي والكاظمي في العراق ، لكن النفس تواقة الى ايمانك بهذه النزعة حتى تكون اميرها واميرشعرائها على التخصيص كما انت امير الشعراء على التعميم .

ولقد رأيت بعد ذلك وجهه المربد يبش لنا ، ولمحت الخير في سرائره ، واذا به يجيب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قائلاً أيها الصحاب كأني بكم تأتمرون بي لكنكم ماتجاوزتم المكنون في نفسي. فانطلقنا نتباشر بالامر، واذا بشوقي يطلع علينا بعد قليل أي عندما اجتمعنا لتكريمه في مجمعنا العلمي العربي الدمشقي في ١٠ آب «اغسطس» سنة ١٩٢٥ ببتيمة نونية ما مدح الانس ولا الجن دمشق واهلها بمثلها منذ ما كانت هذه المدينة الخالدة حتى ايام الناس هذه. وقد تناولت تلك الدرة وصف دمشق وجناتها والاشادة بالأمويين وملكهم العظيم وذكرت اهل الشام بانهم أحفاد بني غسان وعبد شمس وحثتهم على اعادة الملك واوضحت لهم السبل التي تؤدي بهم الى هذه الغاية. ولو لم يكن للفقيد سوى هذه القصيدة في منازعنا القومية لكانت وحدها منة له في اعناقنا تدوم مادام في بلاد الشام ناطق بالضاد. لكن الراحل الكريم لم يكتف بها بل ما كادت تنكب دمشق في ثورة بلاد الشام الاخيرة حتى نسج لها قصيدة قافية مهلهلة تحرك الصخر الاصم وتعيد الحياة الى الميت في ترابه، وقد ضرب بها على الوتر العربي الذي نحن بصدده وهو الوتر الشرقي كما يسميه كثيرون منا ويشيرون بلفظة الشرق الى البلاد التي يتكلم ابناؤها العربية قال:

ويجمعنا اذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف ونطق

ثم لم ينس النزعة نفسها في آيته التي ألقيت في حفلة تكريمه بدار الابرا المصرية فقال:

رب جار تلفتت مصر توليه سؤال الكرام عن جيرانه

وقال:

كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه

ثم أتحفنا بلامية عصماء في ذكرى استقلال الشام وذكرى شهدائه جاء فيها:

بني البلد الشقيق عزاء جار أهاب بدمعه شجن فسالا
قضى بالامس للابطال حقاً وأضحى اليوم بالشهداء غالى
وما زلنا اذا دهت الرزايا كأرحم ما يكون البيت آلا

وقد مدح لبنان وتغنى بجماله ونظم موشحاً في عبد الرحمن الناصر وألف رواية مجنون ليلى ورواية أميرة الأندلس ورواية عنترة كل ذلك في السنين الأخيرة من حياته بعد ان آمن بالنزعة العربية الكبرى ووطد النفس على ان يكون شاعر العرب الأكبر اي شاعر البلاد التي يتكلم أهلها باللسان العربي كما أسلفت ايًا كانت أصولهم وأيًا كان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الدين الذي يدينون به . وقد جلاَّ في هذا المضمار وعلا وحلَّق وقام فينا برسالته . ولو مدَّ الله حياته الغالية لانتظمت فرائده بلادالشرق العربي بأسرها ولتناولت بعض الأقطار التي ما أتاحت له الأقدار زيارتها كالعراق وغيره .

فوا لهف نفسي على بلبلنا الغريد ونابنا الحزين وربابنا الطروب وحكيمنا النصوح ومدرهنا الأروع في مدلهمات الشؤون . أثابه الله عن الوطن العربي الاكبر خير ما يتمناه له شبابنا الأحامس كلما رتلوا آياته البينات وتغنوا فيها بروائع البلاد ومحامد الأجداد والسلام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net